محكم

الفكر الصوفي من خلال مناقب أبي سعيد الباجي

خديجة السمعلي

باحثة تونسية

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

تمهيد:

يسعى هذا البحث إلى التعريف بظاهرة الوَلاَيَة في الفترة الحفصية وتحديدا من خلال نموذج أبي سعيد الباجي، نظرا للأهمية التي حظي بها على امتداد مراحله التاريخية، وخاصة في الفترة الحفصية وجلب انتباهنا تحديدا دراسة مناقب أبي سعيد الباجي، لأهمية هذا الولي وما عرفه بعد موته من اشتهار تجسّد خاصة في المدينة السياحية "سيدي بو سعيد" بجهة تونس الكبرى التي سُميّت باسمه. كما يسعى هذا البحث إلى إلقاء الضوء على الفكر الصوفي بالبلاد التونسية وأدب المناقب، باعتباره نوعا من الكتابة الإبداعية التي لا تهتم بنخب الثقافة العالمة أو أعلى سلطة أو فئات أعلى الهرم الاجتماعي، كما هو الشأن في كتب التراجم وطبقات التاريخ، وإنما على الصوت المغيّب والرافض المطموس والتعبير الدفين داخل نفس المحيط المتصلب، والذي يعبر عليه الوليّ في أقصى حالاته.

ويركز البحث على نقاط عدّة:

- التعريف بأدب المناقب.
- المشهد الصوفي بالبلاد التونسية في العصر الوسيط.
- السيرة النموذجية للولي من خلال كتاب مناقب أبي سعيد الباجي.
- الكرامات: قدرة الولي الخارقة للسيطرة على العالم.
- علاقة الولي بالسلطة والمجتمع.
- تجربة أبي سعيد الباجي بين الواقع والخيال: رؤية نقدية.

"ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون"

سورة يونس- الآية 62

مقدمة:

اخترنا دراسة التصوف في البلاد التونسية في الفترة الحفصية، وتحديدا من خلال نموذج أبي سعيد الباجي نظرا للأهمية التي حظي بها على امتداد مراحله التاريخية وخاصة في الفترة الحفصية. وجلب انتباهنا تحديدا دراسة مناقب أبي سعيد الباجي، نظرا لأهمية هذا الولي وما عرفه بعد موته من انتشار وشهرة تجسّدت، خاصة في المدينة السياحية **"سيدي بو سعيد"** التي سميت باسمه، والتي عادت فيها المدينة إلى ميدان الأحداث بجدارة، والفضل في ذلك يعود إلى الولي الصالح ؛ ويتجلّى هذا الفضل في الأهمية التاريخية والدينية التي حظيت بها المدينة منذ تأسيسها إلى تاريخنا المعاصر، حيث شعّ نورها بأتّم معنى للكلمة.

وعند تناولنا لهذا الموضوع **"الفكر الصوفي من خلال مناقب أبي سعيد الباجي"** كثيرا ما تساءلنا عن جدوى دراسة وكيفية معالجة هذا الموضوع، للتحصّل على زاد معرفي خاصة وأن الدراسات والكتب التي دُوّنت حوله كانت قليلة؛ فلم نعثر إلا على كتاب **"مناقب أبي سعيد الباجي لعلي الهواري، تحقيق البخاري الشتوي"** وبعض الدراسات المتفرّقة التي لم تكن بالأهمية الكافية، فسعينا من خلال بحثنا إلى إلقاء المزيد من الضوء على هذا الموضوع. وبما أننا ندرس الفكر الصوفي؛ فتساؤلاتنا تضمنت نقاطا عدة منها ما يتعلق بمدى مساهمة هذا الولي في إثراء تجربة التصوف بالبلاد التونسية خلال الفترة المدروسة؛ أي الفترة الحفصية.

ولإنجاز هذا العمل والإجابة على الإشكاليات المطروحة فيه وقبل التطرّق إلى الموضوع نفسه **"الفكر الصوفي من خلال مناقب أبي سعيد الباجي"**، سعينا إلى التعريف بالمناقب كجنس في الكتابة هذا من جهة أولى، ومن جهة ثانية عرّفنا بالتصوف بما له من أهمية بالغة في التاريخ الإسلامي. هذا فيما يخصّ القسم الأول النظري من البحث. أما القسم التطبيقي الذي يعد القسم الثاني من البحث، فعملنا من خلاله على الوقوف على أربعة عناصر مهمة.

- أولا، سنسعى إلى كشف الغطاء عن السيرة النموذجية للولي من خلال الوقوف على طابع العيش الذي اتّسم به في تجربته الصوفية، كذلك سنقف على نشاطاته وأهم تجلياته الصوفية.

- ثانيا، سنتعرض إلى الوقوف عند أهم كراماته وما لهذه الكرامات من دور في إضفاء هالة من القداسة والهيبة على شخص الولي.

- ثالثا، سنتعرض إلى كشف الغطاء وإعطاء لمحة حول العلاقة التي ربطت الولي بالمجتمع من جهة وبالسلطة من جهة أخرى.

- أما العنصر الأخير، فسوف نتناوله من وجهة نظر نقدية محاولين إبراز مدى صحة هذا الطابع الصوفي الذي صبغ سيرة الولي.

ولا يسعنا في هذا الإطار إلا أن نقرّ بجملة الصعوبات التي واجهتنا، وذلك لتبرير بعض النقائص والإشكالات التي تغاضينا عن دراستها، وتكمن أولى هذه الصعوبات في غياب المصادر التي لم تعالج هذا الموضوع فيما يخصّ **"الفكر الصوفي من خلال مناقب أبي سعيد الباجي"** تحديدا، وتواضع المادة المصدرية التي ننهل منها؛ فجلّ المعطيات المتوفرة ليست إلا عموميات ذات إشارات لا تفي بالغرض، إضافة إلى صعوبة الحصول على المصادر وذلك لقلّتها. وبالرغم من ذلك، سعينا إلى محاولة التعريف بهذا الموضوع، وإلقاء المزيد من الضوء عليه، ولعلنا من خلال هذا البحث وقفنا على أهم النقاط الإشكالية لهذا البحث، وفي الأخير لا بد من الإقرار بأن البحث ثري ويستحق أكثر مما قدمنا.

1- المناقب: المعنى والجذور

أ- تعريف لغوي:

المناقب جمع منقبة، وهي مشتق اسمي يتعلق بجذر ثلاثي مجرد (ن.ق.ب) وجلّ المشتقات الفعلية والاسمية المتصلة بهذا الجذر تنتظمها حقول دلالية متعددة، حجر الزاوية فيها معاني الخرق والسير والطريق والنفاذ في الأمور.

ب- اصطلاحا:

المنقبة كما وردت عند ابن منظور **"كرد الفعل و يقال: إنه لكريم المناقب من النجدات وغيرها والمنقبة ضد المثلبة"**[1]، وهي المفخرة والفعل الكريم وما عرف به الإنسان من الخصال والأخلاق الحميدة. وهذا المصطلح مناقب، قد شهد على مرّ الأوقات نوعا من التطور وانتهى به إلى الاقتران بمعنى خصال القدوة في فعل الخير والجرأة على صونه، وحمل الناس على الاهتداء به؛ فهي نماذج القدوة القيميّة والسلوكية التي يسعى

[1]- ابن منظور، **لسان العرب**، طبعة جديدة محققة تونس، 1997، ص 133

الإنسان دوما إلى اتخاذها مثلا عليا يهتدي بها. وفي هذا الإطار آلفت المناقب في إطار الحظّ على إنتاج أنموذج اسمى في سنة التقليد، فكان التماثل حاصلا بين مصطلح السنة والسيرة المتصلين بالنبي ومصطلح المناقب المتصل بالولي. ولئن اختلف المصطلحان في المرجع، فإن الحقل الدلالي الذي ينتظمها يظل واحدا. والمناقب في الدراسات المعاصرة تطلق على نوع من الكتابة الإبداعية لا تهتم بنخب الثقافة العالمة أو أعلى السلطة أو فئات أعلى الهرم الاجتماعي كما هو الشأن في كتب التراجم وطبقات التاريخ، وإنما على الصوت المغيب والرافض المطموس والتعبير الدفين داخل نفس المحيط المتصلّب ذاك الذي تكرّسه على أرض الواقع شخصية الولي، وهي تعبر في بعض الكتابات، ومن خلال بعض الأحداث المتصلة بها عمّا يعتمل الذات البشرية من آمال وآلام. فالنص المناقبي يستدعي هذه الشخصيات ويحتفي بها، مما يجعل هذا النص المناقبي وما يطبعه من طابع عجائبي، لا يقل قيمة عن النص التاريخي أو الحضاري، وتبيين الكثير من الجوانب الاجتماعية والثقافية التي ما تزال غامضة في تاريخ المجتمعات، وبلغت الكتابة المناقبية أوجها مع أبي الحسن الهواري المتوفي سنة (664 هـ / 1265 م) والدباغ القيراوني المتوفي سنة (689 هـ / 1285 م) وأبي القاسم بن ناجي المتوفى سنة (839 هـ / 1435 م).

وقد شهدت هذه الفترات انتشار ظاهرة الصُلحاء بتأكدها واستحكامها بشكل نهائي في البلاد التونسية، وقد تغلغلت حركة الصوفية وترسخت أكثر فأكثر في الحياة الدينية. ومن هنا نرى، أن الكتابة التاريخية تعبّر في الغالب الأعم عن مجال الثقافة المهيمنة الذي يحتكره المجال السياسي والاجتماعي والثقافي، لكن الكتابة المناقبية لئن استأثرت في ظاهر خطابها بالمجال الأخلاقي، فإنها تمثل وجها آخر لكتب التراجم والطبقات المتصلة بالأعلام والبلدان.

ج- جذور الكتابة المناقبية:

بدا هذا النمط الكتابي في الظهور والترعرع في القرنين الخامس والسادس هجري (11 هـ / 12 م). أما مرحلة اكتمال هذا النمط من الكتابة وازدهاره الكلي في القرن السابع هجري (13 م)، وهي المرحلة التي سيُكتب خلالها التعريف المنقبي، ثم يتطور نوعيا وبصورة جزئية في القرن التاسع هجري (15 م)، وهي مرحلة تحول ظاهرة الولاية من طور الزهد الفردي إلى طور الزهد الجماعي، وانتقل فيها الخطاب الصوفي من ظاهرة الانتفاء والنشاز إلى مواقع الاستحكام والإشعاع تلاؤما مع التحول السياسي والاجتماعي، كذلك تلاؤما مع ما شهدته هذه الفترة من أزمات على مختلف المجالات سياسيا واجتماعيا وثقافيا، رغم أن المأزق ليس منحصرا فقط في المجال المغاربي، وإنما في المجال الإسلامي بأكمله، حيث سيكون أدب المناقب قد استكمل خصائصه البنيوية المميزة، ولكن الكتابة المنقبية المتصلة بالولي والأولياء، إنما هي إفراز لواقع أزمة العالم الإسلامي مشرقا ومغربا.

د- المدونة المناقبية التي ينتمي إليها أبو سعيد الباجي:

على الرغم من أن المصنفات تفتقر إلى التحقيق، إلا أن أهمية هذه المصنفات على مستوى تاريخ تكوّن المخيال والعقليات بالمغرب الإسلامي، جعل الدارسين يهتمون بها دراسة وتحليلا وتحقيقا، ويمكن أن نميز بين أربعة أنواع من المصنفات، ولكن ما يهمنا في هذا الجانب من الدرس هي المصنفة التي ينتمي إليها أبو سعيد الباجي، وهي المصنفات المنقبية المفردة، وهي مصنفات حددت جغرافيا تقاطيع سيرة شخصية واعية واحدة. وتعتبر مناقب أبي سعيد الباجي لأبي الحسن الهواري أول مصنف منقبي اهتم بسيرة ولي واحد ظهر في القرن السابع، إذ يقول توفيق بن **عامر: "تعتبر مناقب أبي سعيد الباجي لعلي الهواري باكورة ما أنتجته افريقية الحفصية من أدب المناقب؛ فهي أقدم نص ينتمي إلى هذا اللون من الإنتاج في تلك الحدود الجغرافية والتاريخية"**.[2]

و قد اهتم صاحب الكتاب بترجمة حياة أبي سعيد الباجي في نشأته وأحواله وكراماته. وقد عمّ هذا الصنف من الكتابة المنقبية، فنجد مناقب أبي الحسن الشاذلي، ومناقب أبي يوسف الدهماني، وهي الموسومة **"بالأسرار الجليّة في المناقب الدهمانية"**.

2- المشهد الصوفي بالبلاد التونسية في العصر الوسيط:

أ- البناء النظري:

تقول لطيفة الأخضر **"ظهرت حركة التصوف في الإسلام في منتصف القرن الأول هجري، خلال أحداث الفتنة التي هزّت المجتمع، منذ مقتل عثمان الخليفة الراشدي الثالث ثم خلال الصراع بين علي بن أبي طالب والأمويين؛ فكان الزهد في هذه المرحلة الأولى تعبيرا عن احتراز وتحفظ سلبي إزاء ما يدور من صراعات، ثم تحوّل إلى موقف معارض وصريح ضد الأوضاع الاجتماعية والسياسية في ظل الحكم الأموي"**[3]. وما يذهب إليه بعض المستشرقين من حيث اعتبار العصر الحفصي الأول بمثابة الطور التأسيسي للتصوف الإفريقي ليس صحيحا، ذلك أننا إزاء مرحلة تحولية قد تكون مهمة، لكنها لا تخرج عن صيرورة تاريخية شهدت مرحلتها التدشينية، انطلاقا من القرن الثاني للهجرة، مما أعطى التجربة الولائية داخل أفريقية أنساق بدئها. وقد نجحت البلاد التونسية خلال التجلّيات الجنينية لظاهرة الولاية التي تشكّلت بها على امتداد العهدين الأغلبي والفاطمي، وخاصة إبان العهد الزيري فضلا عن إنتاج نماذجها الولائية الخاصة، مثل أبي إسحاق الجبنياني ومحرز بن خلف، نجحت كذلك في التعبير عن قدرتها على استيعاب مختلف التجارب الصوفية

[2]- توفيق عامر، **مقدمة أبي سعيد الباجي**، ط1 ،تونس، 2004، ص 7
[3]- لطيفة الأخضر، **الإسلام الطرقي**، ط 1، تونس، 1993، ص 11

الوافدة من المشرق ومواكبة كل مستجدّ نظري أو سلوكي يتصل بها، إضافة إلى أنها أسهمت في إثراء التصوف الإسلامي بأنساق نظرية جديدة، منها تجربة أبي القاسم عبد الرحمان البكري الذي أسّس مدرسة عرفانية سُميت باسمه **"البكرية"**. والمتقصي لأصول الولاية بالبلاد التونسية يلاحظ عودتها من حيث مرجعيتها الأم إلى شخصيتين ولائيتين، سيكون لهما بالغ الأثر في التصوف المغاربي، وذلك لما تميزتا به في تأسيس تجربة صوفية ذات أبعاد وخصوصيات متفردة، وهما أبو مدين شعيب المتوفى سنة (594 هـ / 1190 م) بالنسبة إلى الطور الموحدي، وأبو الحسن الشاذلي (656 هـ / 1242 م) بالنسبة إلى صدر العهد الحفصي، وهذا إن دلّ على شيء، فانّه يدل على أنّ التصوف بالبلاد التونسية لم يكن إلا انعكاسا لروافد وافدة أو هو في أفضل الأحوال نتاج لتفاعل الرافدين معا ونتاج لتفاعلها. ويجلب انتباهنا أن العلاقة بين افريقية ومحيطها المغاربي في مستوى الينابيع الفكرية لم تكن أحادية الاتجاه، إذ توزعتها ثنائية الدفع والاستقطاب أو التبادل المتكافئ، لذلك ستتحول افريقية انطلاقا من القرنين السابع والثامن هجري إلى أهم مركز من مراكز الاستقطاب الصوفي بالمغرب الإسلامي وسيتواصل معها ذلك إلى غاية العهد الحفصي، وهذا ما يشي بنوع من الحراك الروحي والفكري يشهد على مدى حيوية المجال المغربي وحركيته. إذن، فالبلاد التونسية في العصر الوسيط كانت تتّسم بوجود أرضية روحية وفكرية أكّدت على هضم مختلف المؤثرات واستقطاب النظريات الصوفية المتباينة، سواء تلك التي تعود إلى المرجعية السنيّة أو تلك التي تنبع من المرجعية الفلسفية، وهذا التوافد سيعود بالإيجاب على التجربة بافريقية التي تعددت روافدها فما هي أهمها؟

ب- الروافد:

تعددت روافد التصوف بأفريقية، فكان أبرزها:

الرافد الأندلسي: هو رافد يعبّر رجالاته عن مستوى معرفي مرموق وأطروحات نظرية متطورة وراقية، وينتظم داخل هذا الرافد تياران؛ واحد سني والآخر فلسفي تجليا من خلال حضور عدد من الشخصيات الولائية الأندلسية بمختلف المراكز الصوفية بالبلاد التونسية. فالتيار السنّي يؤكد على تمثيله لكافة النخب الأندلسية التي استقرت بمدينة تونس، وهذا التيار غذّاه حجم الجالية الأندلسية بافريقية، ونجد من أعلام هذا التيار أبا مدين شعيب وأبا عبد الله الخماسي وصالح بن محمد البرنسي الملقب بابن شوش وغيرهم كثير. أما التيار الفلسفي الذي كان قائم الذات بافريقية من القرن (6 هـ / 12 م) على الأقل، إذ كان لمدرسة المريّة للتصوف الاستشراقي حضور واضح من خلال الولاية التي خاضها كل من عبد العزيز المهدوي ت (621 هـ / 1217 م) والباجي ت (628 هـ / 1230 م) وطريقته الصوفية، كما تجلّى التيار الفسلفي كذلك من خلال فكر ابن مسرّة و ابن مرجان الفيلسوف المتصوف وتلميذه ابن قسي.

الرافد المغربي: عرفت أفريقية باستقطاب العديد من المتصوفين المغاربة، هؤلاء الذين استقطبتهم أفريقية، فمكثوا بها واستقرّوا في ربوعها، نذكر منهم السبكري الذي عاش إلى (684 هـ / 1286 م)، وهو فقيه صوفي كانت له صلات بأقطاب عصره، وابن عبد العزيز المغربي ت (716 هـ / 1308 م) نزيل القيروان وإمام الصلاة والخطبة بجامعها اشتهر بالأعمال الخيرية واستصلاح المنشآت الدينية والروحية، ولا يمكن أن ننسى أبا الحسن الشاذلي الذي يعتبر من أهم رؤوس التصوف المغربي، وهو مغربي الأصل وعند رحيله إلى أفريقية تتلمذ على أبي سعيد الباجي.

الرافد المشرقي: لم يكن هذا الرافد بنفس فاعلية الرافدين المغربي والأندلسي، إلا أن قلة أهميته لا تعني ضعف تأثيره، وهذا الرافد وإن لم يكن حاضرا ومؤثرا من خلال حركة "سير الرجال"؛ أي الرحلة من جهة المغرب الإسلامي، فإن فاعليته ستكون ماثلة من خلال حركة سير الأفكار أيضا من خلال ظاهرة الارتحال والرحلة إلى المشرق من خلال الحج الذي يعتبر مكونا ثابتا وأساسيا في سير مختلف الأولياء، وهذا مؤشر آخر من مؤشرات التواصل مع المشرق، وسيظهر ذلك جليّا من خلال ما تزود به الرصيد المرجعي الصوفي الإفريقي من مصنفات كبار منظري علم التصوف الذي ستكون بصماته واضحة الأثر في عملية البناء النظري التي ستتجلى في مجالنا، انطلاقا من العهد الحفصي.

هذه الروافد دالة على حيوية المجال الإسلامي والحركية التي كانت تسمه مشرقا ومغربا، وتبلورت هذه الحركية خصوصا في تعدد روافد المشروع الصوفي وتقاطع الينابيع الصوفية فيه.

ج- التصوف في المجال الإسلامي: الجذور والتجليات

- **<u>في المعنى اللفظي</u>:**

جاء في تعريف التصوف في دائرة المعارف الإسلامية أنه **"صوفي ومتصوف وأصلها الإقبال على الدين والزهد في الدنيا"**[4]. أما الزهد في لسان العرب لابن منظور **"ضدّ الرغبة والحرص على الدنيا والزهادة في الأشياء كلها وفلان يتزهد أي يتعبّد"**[5] وقد أطلق مصطلح التصوف منذ القرن الأول للهجرة، إذ بدا الزهد مسلكا تجلى داخل المجال الإسلامي، وقد أطلق على مظهر من مظاهر الحياة الروحية في الإسلام يتميز بمنهج في التعبد والسلوك وبأسلوب في التدين والاعتقاد وبرؤية خاصة لعلاقة الإنسان بالله، كما تجلّى في اعتزال مجالات النشاط العام وحصر الطاقة في الأنشطة ذات الجانب الروحي، واتخذت هذه الظاهرة أبعادها في الحياة اليومية من خلال التزام أسلوب بسيط ومتواضع في العيش اليومي. وقد اختلف الباحثون حول الواصل الاشتقاقي لكلمة صوفي؛ فمنهم من ذهب إلى أنّها نسبة إلى رجل يقال له صوفة، ومنهم من أرجع وجودها إلى

[4]- **دائرة المعارف الإسلامية**، مركز الشارقة للإبداع، الجزء السابع، ط 1998، ص 2214
[5]- ابن منظور، **لسان العرب**، طبعة جديدة محققة، تونس، 1997، ص 68

صدر الإسلام، وذلك نسبة إلى أهل الصفة، وهم الفقراء الذين كانوا مقيمين بجوار مسجد الرسول، وقد رأى البعض الآخر أن الكلمة تتخذ طابعا فلسفيا وتعود أصولها إلى أصل إغريقي يستمد مشروعيته من التقاطع الدلالي بين مصطلح الصوفية. وصوفيا **"الحكمة"**، خاصة وأن المصطلح في جانبه الفلسفي قد نعت المتصوفة بالحكماء. فالتصوف مصطلح يستعصى على التعريف، ولكن ما هو معلوم ومتعارف عليه نسبة الصوفي إلى الصوف، وهو لباس بدائي خشن اتخذه الزهاد شعارا ماديا لمسلكهم الزهدي، وذلك للتعبير عن انزياحهم عن كل مظهر من مظاهر الثراء والترف الاجتماعي، إذ ارتبط هذا النوع من الملابس في العصور القديمة بالفقر والفقراء. وقد ذكر المؤرخون أنّ حركة الزهد في الإسلام وزهاد القرنين الأول والثاني للهجرة، قد ارتدوا لباس الصوف كما كانوا يعتبرونه لباس الأنبياء والأولياء، وفي هذا الإطار يقول ابن خلدون في المقدمة: **"أن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه كما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف"**.[6]

- **في المعنى الاصطلاحي:**

مسيرة التصوّف **"مسيرة طويلة متشعّبة المسالك ولا يزال الغموض والإيهام يحيط بالعديد من منعرجاتها يحجب أسرارها وخفاياها، خصوصا أنها مسيرة قد واكبت جلّ الحضارة الإسلامية، إن لم نقل كلها"**[7] حسب عبارة توفق بن عامر، ولكن إذا تتبعنا هذه الفترات التاريخية لظاهرة التصوف الإسلامي نرى أنها ظاهرة روحية واجتماعية صرف، وهي نسق معرفي ومنهج كامل ومتكامل في اكتساب المعرفة؛ فهو موقف نفسي وروحي وفكري وسلوكي ووجودي يشمل الحياة والمصير، وهو رؤية أخرى للعالم والتصوف، مسلك في الحياة له مضامين وأسس فكرية منذ السلف الصالح زمن الرسول والخلفاء الراشدين، وهذه المضامين الفكرية والروحية سعت جاهدة إلى تغليب الجانب الروحي على الجانب المادي. والمنهج الذي اعتمده المتصوفة منهج يتماهى مع الأنموذج الرسولي أنموذج القدوة الذي تجسّد بامتياز في العصر الإسلامي الأول، عصر الصحابة والتابعين، وقد جاء على لسان ابن خلدون في المقدمة **"أنّ التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملّة وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وقد كان ذلك فاشيا في الصحابة والسلف، ولمّا عمّ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده جنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية أو المتصوفة"**[8]. وقد كانت ظاهرة التصوف في بدايتها إسلامية النشأة وسارت وفق قواعد الدين، بل كانت نابعة من صميم الحياة الدينية الإسلامية، وقد اتخذت ظاهرة التصوف وجهين؛ واحدة سلوكية

[6]- ابن خلدون، **المقدمة**، طبعة الدار التونسية 1984، ص 584
[7]- توفيق بن عامر، **التراث الصوفي**، المؤشرات الثقافية و النزعات الفلسفية، مجلة الحياة الثقافية عدد 112، تونس 2000، ص 8
[8]- ابن خلدون، **المقدمة**، طبعة الدار التونسية، 1984، ص 584

تؤسس لعلاقة التصوف بحركة الزهد، وأخرى نظرية فكرية تؤسس صلته بمختلف أنماط التفكير، وفي هذا الإطار تقول لطيفة الأخضر: **"مرّ التصوف الإسلامي بمرحلتين أساسيتين الأولى كانت سلوكية واتسمت بالرفض السلبي للواقع الحياتي والسياسي والثانية كانت فكرية"**[9] تجلّت خصيصا في بلوغهم أعلى المراتب في المعرفة واكتسابهم الحقيقة المطلقة، وهذه المعرفة لا يمتلكها إلا الراسخون في العلم اللّدني، وهذه المعرفة لا تدرك إلا بالذوق والقلب. فالتصوف تجربة روحية استوعبت مكونات ثلاثة: المعتقد الاسلامي والواقع الحضاري والعوامل الثقافية، ويمكن القول بأن **"الخطاب الصوفي خطاب أصيل بشتى دلالاته، أصيل لصلته الحميمة بالمعتقد في توقه للتحرر من الأشكال والرسوم وأصيل في رؤيته للكون، وما وراء الكون في نظرة فلسفية مخصوصة وأصيل في تعبيره عن القيم الإنسانية المطلقة، قيم الحب والجمال وهو أخيرا وليس آخرا أصيل أبعاده الاجتماعية المعبّرة عن اللاوعي الجماعي في أزماته أماله وأحلامه وطموحاته"**.[10]

بحسب عبارة توفيق بن عامر **"فالتصوف الإسلامي عاصر الحضارة الإسلامية منذ نشأتها ورافق كل مراحل تطورها، لقد عاش مجدها وبؤسها، فهو في الحقيقة عنصر من عناصرها الأساسية وسمّة من سمات شخصيتها الدينية والفلسفية والعلمية"**[11]. على حد عبارة أنور فؤاد أبي حزم؛ فالتصوف إذن مظهر من مظاهر الحياة الروحية في الإسلام يتميّز بمنهج في التعبّد والسلوك وبأسلوب في التدين والاعتقاد وبرؤية خاصة لعلاقة الإنسان بالله والمعرفة الدينية بشكل عام.

3– السيرة النموذجية للولي من خلال مناقب أبي سعيد الباجي:

أ- سيرته:

هو الباجي أبو سعيد خلف الله يحي التميمي (551 هـ / 1265 م) (628 هـ / 1265 م) ولد بباجة ناحية منوبة من ضواحي تونس الحاضرة، وقد كان من أهل العلم والصلاح قال عنه الهواري مؤلف المناقب أنّه **"كان ديّنا خيرّا فاضلا موقرا ورعا صحّ ذلك عنه واشتهر به من سيرته وأحواله، كان من أولياء الله الصالحين"**[12]. كانت مسيرة الولي محاطة بهالة من القداسة والتعظيم؛ فبعد أدائه فريضة الحج سنة (603 هـ / 1206 م) وارتحاله إلى الشام، رجع إلى تونس وقد دامت رحلته ثلاث سنوات، إذ ذكر البهلي النيال: **"أنّه خرج من باجة القديمة إلى الحج سنة 603 ومنها انتقل إلى الشام، وقد رجع سنة 606 هـ"**[13]، وفي هذه الرحلة **"ازداد عدد أتباع شيخ جبل المنارة وذاع صيته بعدما اعتاد الأعراض عن الناس والانشغال بخصيصة**

[9]- لطيفة الأخضر، **الإسلام الطرقي**، ط1، تونس 1993، ص 13
[10]- توفيق بن عامر، التراث الصوفي بين التاريخ و الفكر و الإبداع، مجلة الحياة الثقافية، عدد 112، تونس 2000، ص 4
[11]- أنور فؤاد ابي حزم، **المصطلح الصوفي**، ط 1، لبنان، 1993، ص 29
[12]- علي الهواري، **مناقب ابي سعيد الباجي تحقيق البخاري الشتيوي**، ط1، تونس، 2004، ص 65
[13]- محمد البهلي النيال، **الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي**، ط1، تونس 1965، ص 226

نفسية إثر رجوعه من رحلته المشرقية"[14] حسب عبارة لطفي عيسى. وقد كان شأنه شأن غيره من الصوفية متزوجا وكانت زوجته من الصالحات، إذ رافقته إلى بلاد الحجاز، حيث حجّت وزارت وجاورت بمكة، وكان من عائلة ميسورة الحال، إذ ورث عن عمه حوالي ثلاثمائة دينار وكانت له ابنة اسمها "السيدة" وكانوا يلقبونها بسيدة الكل. وقد كان أبو سعيد الباجي خياطا قبل أن يشتهر بالزهد والورع والبركة؛ فهو من أولياء الله الصالحين ومن أرباب الأحوال، كان كثيرا ما يرد عليه حال وجد وغشية، فكان يصيح ويقفز ويقع مغشيا عليه، وقد ينخرط في البكاء متأثرا بكلام أو مواقف أو مشاهد تحرك مشاعره، وكان كثيرا ما يعلوه البكاء أثناء قراءة القرآن في الصلاة، ويذكر النص المحقق أنه كان صاحبا لأولياء وأقطاب صوفية ذوي شأن عظيم منهم أبو مدين شعيب كما كان علامة متميزة في الحياة الصوفية بإفريقية زمن الدولة الحفصية.

وقد آلت إليه حلقة عبد العزيز المهدوي قطب التصوف بشمال إفريقية؛ فصار شيخا وعنه تتلمذ الهواري وأبو الحسن الشاذلي وبرعاية منه اكتمل صرح عرفانه، لا سيما أنه كشف له حاله منذ أن رآه، إذ ورد في النص المنقبي **"لما دخلت إلى تونس في ابتداء أمري قصدت من فيها من المشايخ، وكان عندي شيء أحب أن أعرضه على من يبين لي ما فيه قبل أن أبديه فلم يكن منهم من يشرح لي ذلك حتى دخلت على أبي سعيد الباجي، فأخبرني عن حالي وتكلم عن سرّي فعلمت أنه ولي الله، فلازمته وانتفعت به كثيرا رحمه الله"**[15]، إذ كان الفضل في ظهور المدرسة الشاذلية إلى تتلمذ أبي الحسن الشاذلي على يد أبي سعيد الباجي.

تجتمع في حياة أبي سعيد الباجي نوازع فعل الخير وإغاثة الناس والاجتهاد في قضاء حوائجهم مع طلب العلم والانقطاع إلى الزهد والمجاهدة والتأمل والاعتكاف في الخلوات والمرابطة في المغارات، وقد تأتيه الأموال والأطعمة بكميات كبيرة فيوزعها على المحتاجين ويفك بالمال أسرى أو آسارى لدى النصارى أو يسدد بها ديونا بذمة زاوية كان قد أنفقها على الفقراء والمحتاجين والزوار، وكان شديد الملازمة لمسجده بدرب أبي زبيدة بتربة الباي، وكانت علاقته برجال السلطة من الموحدين قائمة على عدم التواصل، إذ كان يتجنب الاتصال بهم، رغم مساندة بعضهم للتصوف.

ذاع صيت الشيخ مشرقا ومغربا واعتدّ بعلمه من ذلك أن أحد العلماء من أهل قرطبة، شغل خطة القضاء بتونس كان حريصا على أن يرسل بكتبه إلى مجلس الشيخ أبي سعيد **"إني أريد أن أرسل إليه بجميع كتبي تكون عنده تقرأ عليه في مجلسه بعد موتي"**[16] من ذلك تبوأ الشيخ أبو سعيد الباجي مكانة اجتماعية مهمة جعلته مقصد الزائرين من أهل العلم والصلاح قديما وحديثا. **"وحدثني الشيخ الفقيه المغربي أبو علي عمر القصري قال لما وردت من المغرب أنا وأخي ودخلنا مدينة تونس سألنا عمّن فيها من المشايخ فدللنا على**

[14]- لطفي عيسى،مجلة الحياة الثقافية، عدد ماي 1996، ص 66
[15]- **مناقب ابي سعيد الباجي**، ص 75
[16]- م ن، ص ص 101-102

الشيخ أبي سعيد رحمه الله"[17]. ارتقى الشيخ إلى سلم العرفان ومعراج الكمال، إذ كان من أرباب الأحوال ومواجيد القلوب له كلام كثير في التوحيد والمعاملات ومراتب المكاسب وحقائق المواهب، توفي وعمره سبعة وسبعون سنة، صلى عليه الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن عيسى البرجيني، ودفن بمنارة قرطاجنة وجاء في تاريخ الدولتين للزركشي ت (932 هـ/ 1525 م) **"وفي ليلة الاثنين السادسة عشرة لشعبان من سنة ثمان وعشرين وستمائة (1525 م) توفي بتونس الشيخ الصالح أبو سعيد خلف بن يحي التميمي الباجي، ودفن بالجبانة المعروفة به بجبل المرسى بمقربة من المنارة"**.[18]

ب- سبب توبته و أحوال بدايته:

مثّل أبو سعيد الباجي المثال الأعلى الولائي الذي قوامه التورّع والترفع عن المكاسب المادية، يجسّد النموذج القدوة القيمية والسلوكية زاهدا ورعا وانقباضا، وبالتالي خصال الأسوة في فعل الخير والجرأة على صونه وحمل الناس على الاهتداء به، إذ كان الغالب عليه الترفع والافتقار والتزهد، ويظهر في كتاب المناقب وخاصة في صورة سلوكه الصوفي المثالي الذي اتّسم بالتقوى والعبادة وفعل الخير **" لم يزل ديّنا خيّرا فاضلا موقّرا ورعا"**[19] عازفا عن متاع الدنيا وما فيها من جاه ومال متوكلا على الله طالبا منه النصرة دون سواه، وقد ظهرت مظاهر نجابة وعلوّ شأن هذا الولي، منذ أن كان صبيا وشهد له بذلك معلمه منذ صغره **"كنت وأنا صبي بالمكتب أقرا القران وأتعلم، كثيرا ما ينظر إلى المؤدب (رضي الله عنه و نفعنا به) ويخصني من الأولاد وكان من أولياء الله، ويقول المؤدب ليكونن لهذا الصبي نبأ عظيم"**[20] وقد جمعته بأصحابه محبة وتقارب، إذ كان ينتسب إلى أبي مروان البوني المعروف باليحصبي فكانت بينهما صلات **"أتيت الشيخ أبا مروان اسأله الدعاء وأودّعه فقال لي بعد أن دعا لي إذا وصلت إلى تونس امض إلى الشيخ أبي سعيد وقل له أخوك أبو مروان يسلم عليك ويسألك الدعاء"**[21] وكان بينه بين الشيخ محمد عبد العزيز المهدوي تزاور وتشاور، تجلّى هذا على كامل صفحات الكتاب، وقد تتلمذ على يديه مؤلف مناقبه علي الهواري وأبو الحسن الشاذلي؛ فكان الفضل في ظهور المدرسة الشاذلية إلى تتلمذ أبي الحسن الشاذلي على يد أبي سعيد الباجي والرجل ينوّه بفضل شيخه عليه: **" فلم يكن منهم من يشرح لي ذلك حتى دخلت على أبي سعيد الباجي، فاخبرني عن حالي وتكلم على سرّي فلازمته وانتفعت به كثيرا رحمه الله"**[22]. وقد تَّوجت مسيرته الصوفية كغيره من المتصوفة بالسفر ومغادرة الوطن للمجاورة بمكة والإقامة بها، وقد خرج من باجة إلى بلاد الحجاز لأداء مناسك الحج سنة (603 هـ / 1206 م)، وظل مجاورا بمكة ثلاث سنوات ثم ارتحل إلى بلاد الشام، ومنها شد الرحال الى تونس سنة (606

---

[17]- م ن، ص 91

[18]- الزركشي، **تاريخ الدولتين**، تحقيق الحسن اليعقوبي، ط 3، تونس، 1998، ص 58

[19]- **مناقب ابي سعيد الباجي** ، ص 60

[20]- م ن، ص 61

[21]- م ن، ص 64

[22]- م ن، ص 75

ه/1209م)، فاشتهر حاله وعرف صلاحه، وقد ظهرت له في هذه الرحلة كرامة زوجته في طريقها إلى الحج وفي منطقة غير آمنة يعسر فيها التوقف للراحة عثرت قدمها في خبزة في وسط الرمل، وهي لا تزال ساخنة **"فوجدتها خبزة كبيرة في الرمل فقسمتها نصفين والحرارة تخرج منها إلى وجهها فأكلتها رحمة الله عليها"**[23]. فمثّل بذلك أبو سعيد الباجي رمزا من رموز المتصوفة في البلاد التونسية كان له شأن عظيم في حياته وبعد مماته، وقد تمكّن أبو سعيد الباجي من إنجاز رؤية تصوفية جامعة حاولت النهل من جميع منابع التصوف شرقية كانت أم مغربية؛ فهو رأس من رؤوس التصوف السني، كما حافظ على بساطة تزهدية مغربية رغّبت في نهجها أكبر عدد من الناس، وأسهمت تبعا لذلك في إخراج التصوف بالبلاد التونسية من الطقوس البدائية ومن الممارسات البعيدة عن الشرع.

ج- أبو سعيد الباجي قطب زمانه:

مثّل أبو سعيد الباجي نموذج الولي المتورّع الذي ذاع صيته شمالا وجنوبا مشرقا ومغربا، تنبأ به معلمه منذ صغر سنه ورأى عليه علامات النجابة والعظمة" **ليكونن لهذا الصبي نبأ عظيم"**[24]. فكانت تكسوه منذ الصغر وإلى أن كبُر وحتى بعد موته علامات القداسة والهيبة؛ فقد ذاع صيته زمن الحج في مكة المكرمة وقد أقرّ أحد المشارقة بذلك فجاء على لسان الهواري في المناقب" **لما كنت بمكة المشرّفة في الموسم رأيت شيخا عليه جمع من الناس يتبركون به ويسألونه الدعاء فأتيته فقال لي: من أي البلاد أنت؟ فقلت من تونس فقال: أعندكم الشيخ أبو سعيد الباجي وأنت تسألني الدعاء؟ إذا وصلت إليه فتقرأه مني السلام"**[25]. وقد تدعّم هذا الاشتهار، وهذا الصيت الواسع للولي بدخول الشاذلي لأول مرة إلى تونس، عندما كشف عن أمره وتكلّم عن حال ولايته وتنبأ بها و قد كان محل احترام الناس وحبهم؛ فكانوا يتزاحمون عليه بالجامع الأعظم تبركا به **"كنت يوما بالجامع الأعظم (يعني جامع الزيتونة بتونس) بعد صلاة الجمعة فرأيت الناس يزدحمون على أبي سعيد الباجي، وهو قائم يصلي، وهو يتبركون به"**[26]. وقد تواصلت هيبته وعلو شأن هذا القطب حتى بعد وفاته **"لما توفي أبو سعيد رحمه الله ورضي عنه رآه بعض الصالحين من أصحابه في المنام بأيام يسيرة فقال له: ما فعل الله بك قال غفر لي ورضي عني وغفر لكل من صلّى عليّ ولكل من شيّع جنازتي ومن حضر مجلسي"**،[27] وهذا إن دل على شيء، فهو يدل على الأهمية البالغة التي اكتسبتها شخصية هذا الولي قطب رحى زمانه، خاصة بما اتصف به من ورع وتقوى واستقامة. وقد أشار الكتاب إلى أمثلة متنوعة في هذا الصدد. ويمكن القول إن أبا سعيد الباجي وإن لم يحقق الشهرة التي هو جدير بها في ذلك الزمان تجلّى خاصة في عدم

[23]- م ن، ص 74
[24]- م ن، ص 61
[25]- **مناقب ابي سعيد الباجي**، ص ص 68-69
[26]- م ن، ص 104
[27]- م ن، ص 109

شهرته وقلّة المؤلفات التي كتبت عنه، فإن تلاميذه بدلا عنه حققوا تلك الشهرة، وهذا في حد ذاته إنجاز ومفخرة له في حقيقة الأمر، فأبو سعيد كان له دوره الفاعل في حركة التصوف بإفريقية، وقد أقرّ له بذلك المستشرق (برانشفيك/ brunschwig) في كتابه تاريخ أفريقية في العهد الحفصي **"ولكن منطقة تونس قد احتفظت أكثر بذكرى صوفي آخر معاصر للمهدوي، وهو أبو سعيد خلف بن يحي التميمي الباجي الذي توفي طاعنا في السن في شعبان سنة (628 / جوان 1231 م)، ودفن في المنطقة الواقعة بين قرطاجنة والمرسى فوق الربوة التي أصبحت تحمل اسمه (سيدي بو سعيد) وقد قام هذا الشخص طوال أكثر من عشرين سنة بنشر التعاليم الصوفية لدى سكان مدينة تونس وضواحيها رافضا جميع العروض التي قدمها إليه خلال مدة ولايته (619 ه/ 1222م-620ه/1223م) السيد الموحّدي أبو العلاء الموالي للنظريات الصوفية"**.[28] إذن، فقد تبوّأ أبو سعيد الباجي مرتبة مرموقة في التصوف في العهد الحفصي رفعت من مقامه، ليكون قطب العصر قديما وحديثا.

د- زهد أبي سعيد الباجي وتقشّفه:

الغالب على كل النماذج الولائية التزهد ومغالبة أهواء النفس والتقشف وارتداء عباءة الكبر والترفع عن شهوات الدنيا وملذاتها، وقد كان أبو سعيد الباجي شأنه شأن جميع المتصوفة زاهدا في الدنيا مترفّعا عن ملذاتها، إذ اتخذ سلوكه مسلكا في الحياة ذي مضامين تغلّب الجانب الروحي على الجانب المادي وموقفا يشمل الحياة والسلوك، وهو موقف نفسي ووجودي حجر الزاوية فيه الانزياح عن كل مظهر من مظاهر الترف الاجتماعي، وبذلك ترك الدنيا وزهد فيها وأقبل على الآخرة واعتزل مجالات النشاط الاجتماعي والسياسي، فاتّسم سلوكه بحسر الطاقة في الأنشطة ذات الطابع الروحي، أيضا اتّسامه بالميسم الأخلاقي المقتصر على التزام أسلوب في العيش اليومي بسيط ومتواضع. وقد حفل كتاب المناقب بمجموعة من الروايات تدل على تغلّب أبي سعيد الباجي على أهواء نفسه، واتضحت خاصة عند خروج أبي سعيد الباجي من باجة قاصدا الحج، ولحق به رجل أعلمه أن عمه توفي وترك له ميراثا قدره ثلاث مائة دينار وطلب منه أن يعود، فأبى الرجوع وعاد بعد المجاورة في مكة؛ أي بعد أربع سنوات فوجدها محفوظة فأخذها، وهذا إن دل على شيء، فقد دل على تجرّده وترفعه وقد تدعمت هذه الحادثة بحادثة أخرى تمثلت في رفضه عطيّة بألف دينار من أمير تونس السيد أبي العلاء **"وأمر له السيد أبو العلاء بألف دينار فردها عليه ولم يقبلها"**[29]. وقد ورد في المناقب خبر مفاده كشف أبي سعيد الباجي عن عرمة من الدنانير لأبي فارس عبد العزيز بن أبي الفتوح، وكان ذلك في المسجد ورد نصها كالتالي **"حدثني الشيخ الصالح أبو فارس عبد العزيز بن أبي الفتوح رحمه الله، وكان من قدماء أصحابه، قال كنت يوما جالسا معه في المسجد بعد انصراف الناس فرأيته يتغير ويتقلق، ثم قال اللّهم**

[28]- برانشفيك، **تاريخ افريقية في العهد الحفصي**، ترجمة حمادي الساحلي، ط 1، تونس، 1988، ص 337
[29]- **مناقب ابي سعيد الباجي**، ص 100

لا تفتني ولا تحجبني عنك بالدنيا، ثم قال يا عبد العزيز انظر هذه الفتنة ثم رفع ثيابه، فإذا هي عرمة من الدنانير تحت ثيابه ثم أخذ منها يسيرا وجعله في جيبه واستعاذ منها وقام ونفض ثيابه كأنها لم تكن".[30]

كل هذه الروايات تدل على المثال الأعلى الولائي الذي كان قوامه التورع والزهد والترفّع المقتصر على التزام أسلوب في العيش اليومي بسيط ومتواضع؛ فقد ترفّع عن المكاسب المادية، فجسّد بذلك المثال الأعلى الولائي الذي تظهر مناقبه رفضه هدايا السيد أبي العلاء ويحرّم على نفسه أن يمسّ نقودا كان أعطاه إياها أحد التجار لكي يتصدق بها، كل هذا جعل منه وليا يحظى بمكانة مهمة في المخيال الجمعي لدى سكان أفريقية في الفترة الحفصية.

هـ ـ نشاطاته:

إنّ النشاط الرئيس للولي لم يقتصر على التعبّد والزهد، وإنما كانت له أنشطة دينية عديدة؛ إحداها ذات صبغة ثقافية ترتبط بالتعليم، فلقد اتخذ تعبّده صيغا متنوعة تمثّلت خصوصا في المجاهدات وترك الطعام ومقاومة أهواء النفس، وفي هذا الإطار، يمكن أن نذكر حادثة عرمة الدنانير التي وجدها في المسجد، وقد اشتملت زاوية أبي سعيد الباجي على تنظيم حلقات للسماع والميعاد والذكر وقراءة القرآن **"فكان رضي الله عنه يحبّ السماع ولا ينكره"**[31]، وكان عند السماع تنتابه حالة من الإغماء والانفعال تصيب جميع المتصوّفة كرابعة العدوية والحلاج ويقع السماع في المسجد أو في داره، ولعل هذا السماع كان مصحوبا بمجموعة من التقاليد لعل أهمها رمي البخور ودقّ الطبول وغيره. وهذه العادات موجودة إلى الآن وسنويا في شهر يوليو، فيقع بذلك الطرب بمعنى الإنشاد والتفاعل النفسي والجماعي، ويقع اللطم أو الدعاء حتى يقع الشيخ مغشيا عليه **"فصاح الشيخ صيحة عظيمة كادت روحه أن تذهب ووقع مغشيا عليه"**[32]. وهذه المجالس كانت تستقطب الفقراء، وكان الشيخ يحثّهم على العمل والعبادة، لأنهما من الجهاد ويرفض التجرّد والجلوس على بساط الفقر، وإلى جانب كل هذا، فإن النشاط العلمي والثقافي للصوفية كان موجودا وتمحور حول قراءة القرآن، وكانوا ينظّمون في الجامع حلقات إثر كل صلاة لتعلّم القرآن ومبادئ الصوفية (آراء ابن الجوزي / رسالة القشيري) فشكلت الطريقة الصوفية إحدى عناصر الظاهرة الثقافية في هذه الفترة، خاصة بالنسبة إلى فئة العامة ذات الثقافة المتدينة. وقد أخذت الزوايا في فترة الولي والنشاط الصوفي فيها بصفة خاصة موقعا مهما إذ كثر أتباعه ومريدوه. و قد كان مثله مثل غيره يتكلّم شعرا في بعض الأحيان، إذ قيل أن أبا سعيد الباجي كانت له أحوال شتى؛ فمرة يغلب عليه الحب، فيقول في حب الله:

---

[30]- **مناقب ابي سعيد الباجي**، ص ص 72-73
[31]- **مناقب أبي سعيد الباجي**، 89
[32]- م ن، ص 89

ذكـر الحبيب لا يمـل أبـدا على الدوام أبـــدا مؤبـــدا
هو الحيـاة للقلـوب وبـــه ترقّق وتحظى بمقام السعدا[33]

ومرة يغلب عليه الأنس، فيقول:

أيا منزل الأحباب هل فيك من واع ويا غاية العشاق أنت لهم داع
ويا منية الأحباب أنت لهم راع [34]

4- الكرامات: قدرة الولي الخارقة للسيطرة على العالم

أ- مدخل لغوي لمفهوم الكرامة:

"كرم الكريم من صفات الله وأسمائه، وهو الكثير الجواد المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه، وهو الكريم المطلق، والكريم هو الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، والكرامة اسم يوضع للإكرام كما وضعت الطاعة موضع الإطاعة والعارة موضع الاستعارة"[35] على ما ورد في لسان العرب. والكرامة كما تعرّفها سعاد الحكيم **"نشأت وترعرعت في أوساط العامة بعيدا عن الحسّ النقدي الصوفي؛ فالكرامة في أغلب الأحيان من المرويات التي تتناقلها مجالس المريدين، ويرجع سبب نشأتها هذه إلى أن الولي أو الصالح يكتم الكرامة، وبالتالي تتناقل وتتسرب بعيدا محملة بالكثير من الأساطير والخرافات"**.[36]

ويرى ابن عربي أنها من خرق العوائد شأنها شأن المفخرة والسحر، وهي ثمرة العبادة، فالكرامة للعابد وليست محصورة على الأولياء، وجاء في القرآن: " **إنّ أكرَمُكُم عندَ الله أتقَاكُم"**[37] فهي إذن من المفخرة والفعل الكريم.

ب- مدخل اصطلاحي:

عندما ننظر في المنظومة الخوارقية لإفريقية خلال الفترة الحفصية، نلاحظ مدى أهمية الكرامات بجميع أنواعها والمتصلة خاصة بشؤون الناس. وقد مثّلت الكرامة نوعا من أنواع السيطرة الكاريزماتية التي يمارسها الولي، إذ كان يعمل في إطار الأزمة على محاولة إعادة إنتاج الرمزية النبوية بالاستناد إلى وسيلة الكرامة التي تعرض المعجزة النبوية؛ فالكرامة إذن تندرج ضمن قدرة الولي الخارقة للسيطرة على العالم وتجاوز المتغير

---

[33]- م ن، ص 79
[34]- م ن، ص 79
[35]- ابن منظور، **لسان العرب**، طبعة جديدة محققة، تونس، 1997، ص ص 395-396
[36]- سعاد الحكيم، **المعجم الصوفي**، ط 14، لبنان، 1981، ص ص 961-962
[37]- القرآن الكريم، سورة الحجرات، الاية 13

من قوانينه، فهي إذن من جنس المعجزة، حيث يصبح الولي وريثا للنبي، وتصبح الولاية استمرارا للنبوة، وعليه تمسي الولاية من جنس المعجزة للنبي، وهي دالة ليس فقط على العرفان بل أيضا على الكرامة؛ الأولى استمرارا للنبوة كوحي، والثانية استمرارا لها كمعجزة، وكما أن المعجزة بالنسبة إلى النبي هي علامة صدقه؛ فكذلك الكرامة هي علامة ولاية الولي وصدقه، وقد عرفتها لطيفة الأخضر بقولها: **"فهي تعني خرق القوانين الطبيعية كما تعني قدرة الأولياء على العجائب ففكرة الولاية تقترن بفكرة الكرامات، إذ لا تكون الكرامات ممكنة إلا اذا حصلت الولاية"**[38]. وتتمحور جلّ هذه الكرامات المنسوبة إلى أبي سعيد الباجي، والتي جاءت بشكل مكثّف وامتدّت على كامل صفحات الكتاب إلى محورين أساسين:

* الكرامة التي تجسّد نوعا من المعرفة الاستباقية (التنبؤ بالغيب والكشف)

* الكرامات الاجتماعية وخاصة المرتبطة بفئات المجتمع.

ج- كرامات المكاشفة:

هذه الكرامات توظف أساسا لإظهار قدرة الولي الخارقة ولإبهار الناس بها، وعلاوة على ذلك اقترنت بوظيفة التنبؤ بالمستقبل، حيث أصبح الولي يدري بالمكاشفات على نمط التنبؤات التي تتحقق؛ فكان نموذج الولي المتنبئ، وجسّد أبو سعيد الباجي بذلك أنموذجا ولائيا طريفا هو الولي المتنبئ أو الملهم، وقد وردت بشكل مكثّف، واختصت هذه الكرامات في حالة المرض وفي الولادات وشؤون الحمل وفي شؤون الفلاحة، وقد جاءت بشكل صريح عند تكهن أبي سعيد الباجي اشتهاء زوجة صديق له ذئبا من البرية فحمله في قفة ودفعه إليه قبل أن تفصح المرأة عن شهوتها **"وحدثني عبد الله الخاتمي وكان رجلا صالحا شهد له بالصدق قال: ولدت زوجتي وكانت قد اشتهت عليّ ذئبا سمينا من البرية، فخرجت متحيرا في تحصيله فلقيت الشيخ أبا سعيد رضي الله عنه ومعه قفّة فيها ذئب سمين فدفعها إلي وانصرف رضي الله عنه"**[39]. وكذلك، عندما أراد القاضي التبرّع بكتبه لأبي سعيد، فامتنع الشيخ عن أخذها بدعوى الموت قبله **"فقال لي: إذا رأيته فأخبره أني أسبقه وأموت قبله وأني أريد السفر وكتبي مشدودة عنده وأنا على رحيل... فبعد مدة توفي الشيخ أبو سعيد رحمه الله، وعاش الشيخ القرطبي بعده أكثر من خمس سنين، ومات رحمهما الله تعالى"**[40]. وهذه الكرامة فيها طابع عجائبي كبير فلا يعلم الغيب إلا الله ولا يدري بشؤون الحياة والممات غيره، ولكن يكون للكرامة بعد خوارقي وعجائبي كبير. أيضا لا يمكن أن نتجاهل خبر اشتهاء زوجة أبي عبد الله الأوذني التفاح والرمان في غير وقتهما وتساقط الفاكهتين على حجر أبي سعيد الباجي، وهذا إن دل على شيء، فهو يدل على الطابع

[38]- لطيفة الاخضر، ص 45
[39]- **مناقب أبي سعيد الباجي**، ص 96
[40]- م ن، ص 102

العجائبي الذي اتسمت به سيرة الولي **"مرضت زوجتي وكانت من الصالحات، فاشتهت على التفاح والرمان في غير آوان ولا يجتمعان الرمان والتفاح في زمن واحد فتحيرت. فقالت لي: زر الشيخ أبا سعيد واقصده في ذلك ... فأتيته رحمه الله فوجدته يصلي في بيته. فلما فرغ سلمت عليه فرد علي السلام وتبسّم في وجهي، وقال: مرضت عيالك فقلت: نعم. فقام وصلى أربع ركعات وأنا على يمينه، ثم دعا بدعاء خفي ثم قال: اللّهم إنك تقول للشيء كن فيكون. فرأيت والله ثلاث عشرة رمانة تسقط (في حجره) (من شجرة طرية) بورقها واثنتي عشرة تفاحة، فأعطاني إياها وفي التفاح واحدة قد أكل بعضها"**.[41]

د- الكرامات الاجتماعية:

يقول الأشعري: **"والكرامات للأولياء حق، وهي من وجهة تصديق للأنبياء وتأكيد للمعجزات"**[42] وقد كانت الكرامات لتدعيم النفوذ الاجتماعي للولي، وتتمحور جلّ هذه الكرامات المنسوبة إليه حول اشفاء المرضى وإطلاق السجناء وسقاية الزرع وجلب الغيث والإبراء، أيضا الإطعام وإيواء الناس والتكفّل بهم والقيام بحاجياتهم والإعانة في الفاقة المالية وعتق النساء، وقد ورد على سبيل المثال في المناقب **"غدا إن شاء الله تمطرون ثلاثة أيام، وتبرأ عيالك من هذا المرض بحول الله تعالى فودعته وانصرفت"**[43]، وقد تنوعت هذه الأمثلة وفي شفاء المرضى من ذلك ما وقع ذكره في سيرته في حكاية ابنة الأمير **"كانت له ابنة في الخيمة أصابها وجع البطن واشتدّ صياحها، حتى أشرفت على الهلاك، فقلت له اتيني بشيء من الكمون وغرفة ماء في صاع ففعل، فقرأت عليه أية من القرآن وقلت له: اسقها هذا على بركة الله و بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشربته فسكن ما بها في الحين"**[44]. وهذه الكرامات كانت ثابتة طوال الفترة الحفصية، وخاصة كرامات إطعام الطعام والنزول عند الشهوات من الأطباق والأكل، وهذه الكرامات نجدها كثيرة في مناقب أبي سعيد الباجي يفسرها الوضع الاقتصادي الذي تسيطر عليه الغلبة والفقر والعوز وتتخلله المجاعات وحالات الجفاف، من هنا كان اللجوء إلى الأولياء الذي يعكس حاجيات الناس المتزايدة إلى إشباع رغبات مجهضة ومقموعة، وكان مجال هذه الشخصيات الروحية لا يتكثّف ولا يتشعّب إلا بقدر استفحال أزمة المجتمع وإحباطاته على كل المستويات.

فالكرامة مهما تكن وظيفتها الاجتماعية، تبقى عملا خارقا للعادة ومن صنف الأعمال التي تتجاوز الطاقة البشرية للإنسان، وهي تدل على تمتع صاحبها بقدرة إلهية أو فوق طبيعية؛ فكرامات المكاشفة بالمستقبل وإطعام الطعام بصورة خارقة هي من خوارق العادات، وهذه المكاشفات كان لأبي سعيد الباجي دور كبير منها

---

[41]- م ن، ص 77

[42]- نقلا عن البهلي النيال، **الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي**، ط1، تونس، 1965، ص 116

[43]- م ن، ص 78

[44]- **مناقب أبي سعيد الباجي**، ص 70

وحضور مكثف لها، ويمكن القول إنها تندرج ضمن آليات الطابع العجائبي لسيرة الولي، وهي السيرة الكاريزماتية.

"إذا غلت أسعاركم وقلّت أمطاركم وضعفت ثماركم وتنكّرت قلوبكم، وعميت عن الرشد مسامعكم وكثرت النميمة والغيبة في خياركم، وجارت عليكم ملوككم فالتجئوا إلى الله بالأولياء الذين خلف ظهوركم يؤمنكم مما تخافون".

(مناقب أولياء تونس، مخطوط عدد 189555، ص 10
نقلا عن نللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع، ط 1، تونس، 2001)

5- أبو سعيد الباجي: علاقته بالسلطة والمجتمع

لقد مثلت علاقة الولي بالمجتمع من جهة وبالسلطة من جهة ثانية من العلاقات المهمة لسيرة كل ولي، ناهيك عن أن تجربة الولاية في كل الأقطار كانت لها صلة وثيقة بهاتين الظاهرتين.

فما علاقة أبي سعيد الباجي بالمجتمع من جهة وبالسلطة من جهة ثانية؟

أ- أبو سعيد الباجي ومجتمع بلاد أفريقية:

كانت علاقة الباجي بالمجتمع متينة، إذ نال احترام جلّ الفئات العمرية صغارا وكبارا نساء ورجالا، فتقع زيارته من مختلف الفئات العمرية، وهذا يدل على مدى الاعتقاد والإيمان بقدرات الشيخ على معرفة دواخل الناس وأعمالهم وحركاتهم وخفاياهم، وتجلّى خاصة في مساعدتهم وتحقيق شهواتهم، وخاصة عند اشتهاء زوجة أبي عبد الله محمد الأوذني التفاح والرمان في غير وقتيهما، فتساقطت الفاكهة على حجر أبي سعيد أيضا تجلّى دوره في مساعدة الناس على تخطي المآزق والأزمات المالية ومساعدتهم من ذلك ادخاره لمال عامل من أهل المغرب إلى أن حلّت به البطالة، فقدم له كامل المدخّر ليتمكن من استثماره في مصدر رزق قار يكفيه الحاجة **"فدفع له الشيخ رضي الله عنه عشرة دنانير وزاده ما يشتري به ماعونا وما يكتفي به وما يصلح له"**[45] وهذا الترابط والاعتقاد في الصلحاء، يوحي بوجود روابط اجتماعية وثيقة تربط الصالح بالمجتمع؛ فقد مثّل الخلاص والنفاذ في ظلّ الأزمات الاجتماعية والسياسية والثقافية والتقهقر الذي ساد زمن الدولة الحفصية. وبناء على هذا، تمكن أبو سعيد الباجي من بلوغ أرقى المراتب الصوفية والدينية التي افتخر بها، ويؤكد كتاب المناقب على أهمية الدور الاجتماعي الذي لعبه أبو سعيد الباجي وأصحابه من الصلحاء من خلال تكرر

[45]- **مناقب أبي سعيد الباجي**، ص 80

شكاوى مختلف فئات المجتمع لهم، وتتراوح هذه الشكاوى بين مشاكل مادية وسياسية واجتماعية، فيقع التوجّه إلى الولي في حالة الجذب والقحط وانحباس المطر أو الشكوى من قلّة الحاجيات والمال؛ فمثّل الصُلحاء ملجأ كل المشاكل وملاذها على جميع الأصعدة.

* مشاكل المرض

* مشاكل المجاعات

* مشاكل القحط والجفاف وغيرها كثير

ونحن نرى تدخل أبي سعيد الباجي لدى السلطات لإطلاق سراح مساجين ولعتق أسرى، ولعل السلاح الأكثر استعمالا وفاعلية إزاء كل هذه القضايا هو الدعاء الذي يلعب دورا مهما، بوصفه مقوما من مقومات السيطرة الكاريزماتية وإحدى آليات ممارستها واستمرارها، فتحوّل بذلك إلى سلاح بيد الأولياء في علاقتهم بالسلطة والمجتمع، علما بأنه لا فاعلية لهذا الدعاء إلا بوجود اعتقاد وإيمان بهذه الفاعلية، وبالتالي بالقدرة الخارقة للأولياء باصطفائهم واستجابة الله لدعائهم، وبالتالي فإن هذا السلاح من الأساليب الأكثر فاعلية ونجاعة، وهذا يعطي الثقة للفئات الاجتماعية للجوء إليه والخوف منه ومن غضبه. وقد تعددت مستويات تدخل الأولياء، وتمحورت على الشكل التالي:

- شفاء المرضى بواسطة الرقية.
- إطلاق السجناء.
- سقاية الزرع وجلب الغيث.
- الإبراء.
- إطعام الفقراء.
- إيواء الناس والتكفّل بهم.
- الإعانة في الفاقة المالية.
- عتق العبيد والأسرى.
- رفع مظلمة والاقتصاص من ظالم.

فمثّل بذلك الولي ملاذا وعلاجا لعديد من القضايا المتفاوتة الأهمية، مما يدفعنا إلى القول إنّ الصلحاء لعبوا دورا اجتماعيا مهما موازيا للسلطة المحلية، ولم يقم بتعويضها في وظائفها. وقد اعتمد الأولياء في تدخلهم

خطابا اجتماعيا إصلاحيا، فكان الولي المنقذ والمتنفس للمجتمع، وكان المجتمع الوعاء الكبير الذي يدور فيه الولي ويبثّ فيه دعوته، ولذلك فإن **"المجتمع يصنع الأولياء الذين هو بحاجة إليهم"**.[46]

ب- أبو سعيد الباجي والسلطة الحفصية:

مثّلت هذه العلاقة مجال جدل منذ القديم بين السياسي ورجل الدين وخاصة المتصوفة؛ فكانت العلاقة إما صراعا وتنافسا، وإما تقرّبا وتلاحما لكسب الودّ والمشروعية، **"واذا نحن اعتبرنا بنوعية العلاقة التي كانت تربط الولي بالسلطة، والتي كشفت المناقب على انتهائها إلى طريق مسدود في بعض المناسبات"**.[47]

ولعل تعاضد هذا الدور هو الذي جعل السلاطين، رغم ما يمكن أن يشوب علاقاتهم بالأولياء من صراعات تخفي تنافسا غير معلن حول الزعامة بين الدنيوي والمقدّس والروحي، كما هو الشأن في علاقة أبي العلاء بأبي سعيد الباجي، فسعى رجال السلطة بذلك إلى استرضاء الأولياء وكسب ودّهم، ومن ثمّة الانخراط بولايتهم فيما يمكن أن نصطلح على تسميته **"بالإنجاز الإديولوجي"** الذي يضفي على السلطة الحاكمة وممارستها السياسية شرعيّة القداسة. ألم يبذل أبو العلاء أقصى ما في وسعه حتى يحظى بمباركة أبي سعيد الباجي لمشروعه، وقد كانت علاقة أبي سعيد بالسلطة في كل حالاتها تتّسم بمجانبة السلطان ورفض أي تعاون معه محليا أو مركزيا وانحاز إلى الفئة المهمّشة، إذ ورد في المناقب **"لما استزاره الشيخ أبو العلاء توقف الشيخ أبو سعيد رضي الله عنه زيارته وكره ذلك منه... و أمر له السيد أبو العلاء بألف دينار فردّها عليه ولم يقبلها منه"**[48]، فكانت العلاقة بينهما قائمة على الصدام وعدم التبادل وأخذ الهبات والهدايا والتزاور، ويتوضح ذلك أكثر في حادثة المشادة التي وقعت بين أبي سعيد وأحد الظلمة، وهو الوزير ميمون الهنتاني، إذ يقول الهواري: **"فوقف الشيخ أبو سعيد رضي الله عنه ثم قال: سمعت أنك تحدث هنا حرثا يضرّ بالجيران لا ينبغي لك هذا فغضب في وجهه، و قال له اشتغل بشغلك يا شيخ واترك الموحدين يفعلوا ما أرادوا"**[49] فكانت نتيجة غضب الشيخ عليه أنه **"بات مكبّلا ثم ضرب ضربا شديدا وعذب واستوحل وسجن مدة ثم توفي ولم تبق له بقية"**[50] اذن، لقد كانت العلاقة بين الولي والسلطة مبنية وقائمة على الصراع والتناحر، فكل سعى إلى إكساب المشروعية على خطابه، ولكن بحكم استقطاب الولي إلى فئة العامة، فقد سعت السلطة بدورها إلى إكساب المشروعية على خطابه، ولكن بحكم استقطاب الولي إلى فئة العامة؛ فقد سعت السلطة بدورها إلى كسب وده وقد تعاضد نفوذ الأولياء لدى الحكام ورجال السلطة، وبالتالي سعوا إلى تنفيذ رغبات الأولياء وقضاء حاجاتهم وتعاظم نفوذهم لديهم، إذ يقول الراشدي في هذا الإطار: **"أفلا ترى أنه لم يزل في كل قطر وعصر أولياء تذلّ لهم ملوك الزمان ويعاملونهم**

---

[46]- **Lillete (j-y) «introdction »,dans les fonctions des saints dans le monde,** Rome , 1991, p 6

[47]- لطفي عيسى، **اخبار المناقب في المعجزة و الكرامة و التاريخ**، ط1، تونس، 1993، ص 64

[48]- **مناقب أبي سعيد الباجي**، ص 100

[49]- م ن، ص 108

[50]- م ن، ص 108

بالطاعة وألاذعان"[51]. وبحكم تعاظم نفوذ الولي سعت السلطة السياسية إلى كسب وده والتحالف معه نتيجة لسيطرته الكاريزماتية، وما كان لهذه السيطرة من نفوذ ومن سلطان على العامة وبذلك مثّل أبو سعيد الباجي أنموذج المثال الأعلى الولائي الذي قوامه التورّع والتوكّل والمنقبض عن السلطان الرافض لأي تعامل معه ولأي عطاء منعه فقد غلب على طبيعته **"تجاف عن ذوي السؤدد و أصحاب السلطان ورفض حظوتهم وهباتهم والتجرؤ على مطالبتهم بالعدل بين رعاياهم والتوكل على الله مع طلب النصرة منه"**[52] على حد عبارة توفيق بن عامر. فكانت العلاقة بين السلطة السياسية وبين الباجي قائمة على التنافر وقائمة على سعي السلطة إلى كسب ودّ هذا الرجل، خصوصا بعد تكاثر مجالات تدخله وكان صاحب سلطة تظهر في علاقة منافسة مع سلطة الحكم، وكأننا بالفعل أمام إشكالية من سيجسّد السياسي في المجتمع الحفصي هل السلطة السياسية؟ أم الأولياء بما آلت لهم من سلطة ومن تدخل فعال ومن تأثير في كل مجالات الحياة العامة.

ج- أدوار الولي ووظائفه:

أمام تفاقم أزمة المجتمع خلال العهد الموحدي وأثناء العصر الحفصي وما يعانيه من تقهقر وفقر وجفاف ورزوخ الفئات الشعبية بإفريقية تحت وطأة الاستغلال الاقتصادي والجبائي، ومع تقهقر المجال الفلاحي والاقتصادي وتفاقم الكوارث من جفاف واكتساح الجراد وتفشّي الأوبئة والمجاعات، إضافة إلى كل هذا ما انتشر بالبلاد التونسية من أخلاقيات كالاختلاس والمصادرة والتعذيب والوشاية وسيطرة نزوات السلطان، كذلك ما عرفت به الدولة من تسليط شتى أنواع البطش والتعذيب والتنكيل بالعامة. هذه الأسباب كلها رشّحت الأولياء إلى لعب دور اجتماعي وسياسي مهم وتفاقم نفوذهم على جميع الأصعدة وكافة المجالات فآضطلع الولي بجملة من الوظائف، كان قطب الرحى فيها:

مساهمته الفعالة في رفع الأمية ونشر المبادئ الإسلامية وإيواء الناس الفقراء منهم والمساكين، كذلك مساهمته الناجعة أولا في تأمين الحاجيات الأساسية، وتمثلت خاصة في إطعام الطعام وإشباع حاجيات الناس المادية، ومساعدتهم على التصدّي للأزمات، وقد كان له دور يضاهي دور الطبيب في إشفاء المرضى ومساعدتهم على تخطي جميع الصعوبات، من ذلك ما وقع ذكره في المناقب: **"سمعته رضي الله عنه يحدّث عن واحد من أصحابه أصابه داء في آليته (وورم) حتى خاف على نفسه و أشرف على الهلاك، فأتى بعض الأطباء فطلب منه عشرين دينارا وكان فقيرا فسأله أن يترك له شيئا فأبى وانتهره. قال الشيخ: فجاء**

[51]- الراشدي" ابتسام" ص 264، **نقلا عن نللي سلامة العامري، الولاية و المجتمع**، ط 1، تونس، 2001
[52]- توفيق بن عامر **"مقدمة مناقب أبي سعيد الباجي"**، ط1، تونس، 2004، ص 11

وأخبرني بذلك فآعطيته من التربة وقلت له: اجعلها على موضع الداء ثلاث مرات وعد إلي. فجاء بعد ثلاثة أيام فلما رآني تبسّم، وقال لي: قد عافاني الله ولله الحمد".[53]

أيضا ما كان له من دور زمن الحروب في فك الأسرى والمساجين، وجاء على لسان الهواري في المناقب: **"خذ هذه فك بها عائشة وفاطمة واتيني بهما"**[54]. ولا يمكن أن نتجاهل أو ننسى أهم وظيفة اضطلع بها الولي، وهي الوظيفة الروحية وتأمين الجانب النفسي؛ ففي ظلّ غياب الأمن والاستقرار اضطلع الولي بتأمين الجانب النفسي؛ فهو الملاذ الوحيد والخلاص الأوحد، فكان المنقذ لهذه الفئات المهمّشة هذا من جهة، ومن جهة أخرى سعى إلى الانخراط في تأمين البلاد ودرئها من الأخطار الخارجية وفي طليعتها الخطر المسيحي، ويتضح ذلك جليا في غزوة دمياط عندما تصدّى لهم بالدعاء، بسلاح الكلمة وما كان لهذا السلاح من قوة في قلب الموازيين، وقد جاء على لسانه: **"لما كان قبل غزوة دمياط بقليل أجرى الله على لساني من الدعاء اللّهم أحرقهم اللّهم اسحقهم اللّهم امحقهم، فلما كان بعد ذلك كشف على بصري، فرأيت من موضعي هذا ما فعل بهم المسلمون، وقد حصلوا غرقا في الماء وتركوا خيلهم وسلاحهم. فلم يكن إلا قليلا حتى وصل الخبر بصحة ما رأيت رؤية عين بلا زيادة ولا نقصان"**.[55]

فكانت هزيمة النصارى على يد المسلمين، ولا ننسى أيضا دوره الكبير في التدخل الفاعل لدى السلطات لفائدة المجموع من الناس، ويكون ذلك إما لإطلاق سجين أو لشفاعة في الأسرى، أو رفع مظلمة والاقتصاص من ظالم أو المطالبة بعدل. إذ كان أبو سعيد الباجي يدعو إلى العدل من الأمير موجها له في ذلك خطابا في قوله: **"عدلكم يوما واحدا أفضل من عبادة المتعبدين سنين كثيرة"**[56]. فكثيرة هي الوظائف التي اضطلع بها أبو سعيد الباجي، إذ كان الخلاص والمتنفس في مجتمع يعيش الأزمة بكل إرهاصاتها، فكان مجال هذه الشخصيات الروحية لا يتكثّف ولا يمتد إلا باستفحال أزمة المجتمع وتحطّم آماله وتشعّب آلامه، فمثّل بذلك القدوة الدينية والقيميّة والسلوكية.

ولكن السؤال يطرح نفسه هاهنا ماهي طبيعة هذه القداسة والهالة التي أصابت شخص الولي؟ هل كانت نتيجة الواقع المتردّي أم الصدفة لعبت دورها في ذلك؟ هل كانت نتيجة خيالات وتخيلات ويوطوبيات مجتمعات تعاني لم تجد الخلاص إلا في العجيب و الغريب؟

---

[53]- **مناقب أبي سعيد الباجي**، ص ص 75-76

[54]- م ن، ص 105

[55]- م ن، ص 67

[56]- م ن، ص 101

6- تجربة أبي سعيد الباجي بين الواقع والخيال:

يعد هذا العنصر من العناصر المهمة، وسوف نشير إلى نقطتين أساسيتين؛ محاولين إضاءة الجوانب الخفية فيهما؛ أولهما المدهش والخلاب في سيرة الولي من خلال العودة إلى الأثر وكذلك قراءة الظاهرة الصوفية قراءة نقدية علمية.

أ- العجيب والمدهش (le merveilleux) في سيرة الولي:

العجيب والمدهش هو الشيء الخارق للعادة الفوق طبيعي، ويمكن تعريف الاندهاش أو الإعجاب بأنه **"الحيرة التي تستبدّ بالإنسان بسبب عدم قدرته على معرفة علّة الشيء أو سببه أو الطريقة التي ينبغي اتباعها للتأثير عليه، وينتهي الاندهاش أو الإعجاب بسبب الألفة والرؤية المتكررة ... أما الغريب، فهو الظاهرة المدهشة التي تحصل نادرا وتختلف عن العادات المعروفة والمناظر المألوفة"**.[57]

وقد اشتملت سيرة الباجي على العجيب والمدهش واتخذ الطابع العجائبي بعدين؛ بعد مادي وآخر حسيّ تجلّى في الواقع العيني والمفارق الغيبي، فكان العجيب والمدهش بصفته دعامة لفكر الخلق لدى الولي. فتمثّل المدهش الأول في تحويل المعطيات الواقعية الخاصة بالعالم المحسوس إلى رؤيا عجيبة مدهشة للعالم المخلوق (Le monde créé)، وبرز هذا وبشكل مدهش للغاية في قولة أبي سعيد الباجي عندما رآه أحد أصحابه في المنام وسأله: **"ماذا فعل الله بك ؟ قال غفر لي ورضي عني وغفر لكل من صلّى علي و لكل من شيّع جنازتي ومن حضر مجلسي"**[58]. فهذا نوع من أنواع العجيب المدهش، كذلك العجيب تجسّد في مستوى المكان والزمان، وذلك عند اشتهاء زوجة أبي عبد الله محمد الأوذني التفاح والرمان في غير وقتهما وتساقط الفاكهتين على حجر أبي سعيد؛ فنحن لا نستغرب إن حصل هذا في زماننا الحاضر زمن التطور والتقدم، ولكن في القرن السادس هجري، فهذا من المستغرب الخيالي من نوع العجيب المدهش.

تجلّى المدهش العجيب والخلاب الخارق للطبيعة (le surnaturel) في علم الطبيعة كاكتساح الجراد أو القحط، أما مع أبي سعيد الباجي، فتجلى في التنبؤ بنزول المطر، إذ جاء على لسانه **"غدا إن شاء الله تمطرون ثلاثة أيام "**[59]، أيضا الخارق والمدهش في سيرة الولي تجلّى في علم الجنس، في أصل الولادة وجنس المولود، إذ ورد في المناقب: **"حدثني الشيخ الصالح المبارك سلامة المطرز في وفاة زوجته رحمهما الله قال: أقمنا مع الشيخ أبي سعيد رحمه الله ورضي عنه في جامع الشيخ في منارة قرطاجنة أياما بعد رجوعنا لتونس، فقال**

[57]- القزويني، **عجائب المخلوقات**، ط ر، بيروت، 1973، ص 21
[58]- **مناقب أبي سعيد الباجي**، ص 109
[59]- **مناقب أبي سعيد الباجي**، ص 77

لي: يا مطرز تزايدت لك ابنة سموها عزيزة خذ هذين الدرهمين واسرع حتى نلحقك، قال: فجئت إلى الدار وقرعت الباب، فخرجت إليّ القابلة، فقالت لي تزايدت لك (طفلة سميناها) عزيزة"[60]، وهذا ما حصل فعلا. أيضا العجيب والساحر ظهر في رؤية الكائنات الماورائية الملائكة والجن **"ولقد شاهدت منه العجب في مرضه الذي توفي فيه كان أكثر أوقاته تدخل عليه الملائكة ويسلم عليهم ويشير إليهم بالجلوس، وهو يقول: هنا يا ملائكة الله هنا يا وفد الله"**[61] كذلك تجلّى العجيب في أقواله: **"وسمعته مرارا رضي الله إذا قيل له كيف حالك يقول منعم الظاهر والباطن"**[62] **"وبالتدريج، فإن الاستلهام المرضي لعناصر هذا المجال الميثي الخاضع لآليات التهويم، وذلك بنيّة التبرّك سينتهي بمجترحي هذه النصوص إلى رسم وقائع عجائبية، لا ننكر توفرها على بعض الطرافة والجمالية نتيجة لولوجها لبديع القصص، على الرغم من إغراقها في تشكيل أحداث تنؤو جملة وتفصيلا على الواقع المعيش للشخصيات التي تدعي تأييد خصالها"**[63] على حد عبارة لطفي عيسى، فكان العجيب والساحر والخلاب والمدهش، مما صبغ حياة الولي منذ أن كان صغيرا إلى أن توفي، فنلاحظ أن العجيب والمدهش يلعب دورا مهما في المناقب وفي السير الولائية. ولكن السؤال يطرح نفسه هذا الطابع العجائبي الذي صبغ حياة الولي والكرامات المنسوبة إليه هل كانت نتيجة واقع عيني وحقيقة محض؟ أم كانت نتيجة أوهام وصدف؟ هل هي ناتجة عن واقع عيني أم هي هلوسات وخيالات ويوطوبيات حالمة وظّفها المجتمع خالية من الأهمية؟ هذا ما سنتعرض له في العنصر اللاحق من البحث.

ب- قراءة نقدية للتجربة الصوفية لأبي سعيد الباجي:

يمكن القول وبصفة عامة، إن لغة المناقب قليلة الارتباط بالمنطق العقلاني الفلسفي المعاصر، لأنها تغذي الخيال وتهز العاطفة أكثر مما تشحن القارئ بمقولات وتحديدات وقواعد عقلانية. ومن المعلوم أن أدبيات المناقب قد تعرضت للكثير من المبالغات ضمن خط التبجيل والتقديس **"ونحن نشدد على أهمية الحقل المعرفي الجديد الذي بات يركز أكثر من ذي قبل على دور الخيال أو المخيال أو الأسطورة في صنع التاريخ، ونعتقد على غرار عدد كبير من الباحثين أن التاريخ لا تحركه الأحداث المادية الواقعة التي جرت بالفعل، وإنما تصنعه أيضا الخيالات والأحلام والأوهام التي تصاحب هذه الأحداث تسبقها أو تأتي بعدها"**؛[64] فالهالة والقداسة التي صبغت حياة الولي قد أعطاها له المجتمع الذي أثقلته المآسي والهموم، فالسلطة السياسية بإفريقية في عهده تعاني الضعف على المستوى الداخلي والخارجي، والساسة لا يهتمون بشؤون المجتمع، فكان الولي هو الملاذ والملجأ، يقول محمد أركون: **"فإننا نلاحظ ظهور سلالات مرابطية أو جمعيات دينية (زوايا) لكي**

---

[60]- م ن، ص ص 84-85
[61]- م ن، ص 69
[62]- م ن، ص 69
[63]- لطفي عيسى، **أخبار المناقب في تالمعجزة و الكرامة و التاريخ**، ط 1، تونس 1993، ص 31
[64]- لطفي عيسى، **أخبار المناقب في تالمعجزة و الكرامة و التاريخ**، ص 31

تحلّ محل الدولة المركزية الجائرة القوى في المناطق ضعيفة الإسلام أو المؤسسة بشكل ضعيف عموما"[65]. فنرى أن أركون يرجع هيبة الأولياء بصفة عامة إلى ضعف الإسلام أولا وإلى الحالة المتردية التي تعيشها البلاد. فهذه الحالة أسهمت في رسم صورة خيالية للولي، خاصة وأنه حلّ محل السلطة، ولكن هذه الرؤية للولي قائمة على هلوسات ويوطوبيات حالمة رسمها المجتمع. فهل يمكن أن نتغافل أو ننسى الدور السلبي للولي، والذي تجلى خاصة في قيام زاويته على الهبات والعطاءات، فمثّل نموذج الولي المتوكّل، بالرغم من امتهانه الخياطة سابقا؟ أيضا لا يمكن أن نتجاهل تلك الممارسات المشبوهة والمتمثلة في الشعوذة، وهي مصطلح صوفي يقصد منه الإشارة إلى ممارسات الولي غير المتطابقة مع منطوق الشرع ولا يمكن أن نتناسى هذه الطقوس التي تقام الى حد الساعة في فصل الصيف من كل سنة. أيضا هذا السمو، وهذه الهالة التي وصل إليها الولي، لم تكن إلا نتيجة واضحة لغياب العقل **"وهو ما يؤشر على محدودية التيار النقدي وعدم إيغاله في التشنيع نظرا إلى ما كان يبديه المجتمع من تحفّظ إزاء، مثل هذه الانحرافات الفكرية بقطع النظر عن التعلّق المفرط الذي أبدته كل الشرائح شريفها ومشروفها بالأولياء وترحيبها بالنهج التصديقي استدرارا للبركة واعتقادا في صحة الادعاء، مما يثبت سذاجة التدين ومحافظته على جانب كبير من موروثاته الطقوسية البدائية والبسيطة"**[66]. وفي إطار حديثنا عن غياب العقل، نستحضر ما وقع ذكره في المناقب في حادثة الرجل الذي أصابه مرض في آليته مع الشيخ والطبيب، فهل يصح أن يشفى ذلك الرجل عن طريق **"رقية"** الباجي، بينما يعجز الطبيب عن مداواته **" فلما نظر إلي تحيّر وقال لي: بعزة الله أخبرني كيف بريت"**[67] فالاعتقاد في الزوايا والأولياء بصفة عامة والولي الباجي بصفة خاصة ناتج في حقيقة الأمر **"عن جهل الكثير من المسلمين بحقيقة الإسلام"**[68]. ويمكن أن نستخلص من كل هذا وجود رؤيتين متناقضتين للإسلام في نفس الوقت؛ فالدين الإسلامي ينكر وجود واسطة ووسطاء بين الله وعباده. وهذه الوساطة انتهت بموت الرسول محمد، والعلاقة بين الله والبشر لا تقوم على وسائط بمثابة الرسول الجديد يتوسل بها الناس لقضاء حوائجهم والدعاء إليهم **"إنّ اللّذين تَدعُونَ من دُون الله عبَادٌ أمثَالُكُم فآدعُوهُم فليَستَجيبُوا لَكُم إن كُنتُم صَادقين"**[69]، لذا يجب مواجهة هذا الخطاب، لأنه خطاب يواجه اللاعقل بمنطق التجربة والعقل، فالله موجود يسمع دعاء الناس ويستجيبه **"وإذَا سَألَكَ عبَادي عَني فإني قَريبٌ أجيبٌ دعوَة الدَاعي إذَا دَعَاني"**[70] فهذه الظاهرة لم تكرّس سوى التخلّف والجهل والخنوع والاستسلام، والاعتقاد في أناس عوض الله وطلب الرحمة منه والشفاء على يديه. فكانت كرامات الولي ناتجة عن أوهام مجتمع أثقلته المآسي والصراعات، فوجد في الولي المهرب والمخرج والملاذ. ويمكن القول أخيرا إن هذا الإرث من المخطوطات الصوفية، يندرج ضمن الفلكلور كما أشار إلى ذلك لطفي عيسى

---

[65]- محمد أركون، **الفكر الإسلامي قراءة علمية**، ط 1، بيروت، 1987، ص 29

[66]- لطفي عيسى، **مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن 17**، ط1، تونس 1994، ص 120

[67]- **مناقب أبي سعيد الباجي**، ص 76

[68]- ديل إيكلمان، **الإسلام في المغرب**، ج 1، ترجمة محمد عفيف، المغرب 1989، ص 19

[69]- القرآن الكريم، سورة الأعراف آية 194

[70]- القرآن الكريم، سورة البقرة آية 186

ولا يمكن إدماجه في سياق المعاصرة أو في سياق التاريخ؛ فهو في أجلى تعبير عنه هلوسات وخيالات ويوطوبيات خالية من الأهمية.

الخاتمة:

كان المسعى من وراء هذا المبحث الذي يدعي الرغبة في التأسيس لظاهرة الولاية في الفترة الحفصية، وخاصة أنموذج أبي سعيد الباجي هو التوصل إلى إلقاء المزيد من الضوء وشدّ انتباه الباحثين حيال مادة مصدرية ثرية تمثلها كتب المناقب بصفة عامة، و**"مناقب أبي سعيد الباجي"** بصفة خاصة. ونعتقد من خلال هذا البحث أنه قد آن الأوان لإخراج هذا الإرث من دائرة التجاهل التي خضعت له منذ زمن طويل، وذلك بالإقبال على سيرة هذا الولي من خلال التأمل في المادة المصدرية كتابة وقراءة. وقد سعينا جاهدين وحاولنا إزاحة الغطاء على بعض النقاط التي صبغت فكره الصوفي، فأبرزنا نوعية الفكر الصوفي الذي يؤسس له من خلال الوقوف على أهم مبادئه وأهم المضامين التي قام عليها. وسعينا أيضا إلى تبيان طريقته الصوفية أو فكره الصوفي من خلال السيرة النموذجية في التصوف، إذ مثّل الباجي أهم رموز التصوف في بلاد أفريقية في الفترة الحفصية، كما أنه مثّل قطبا من أقطاب التصوف السني بصفة خاصة، فوقفنا على أهم مميزات تصوفه من خلال الزهد والورع والتقشف. وتوقفنا بالموازاة عند أهم أنشطته الاجتماعية والروحية، كما سعينا إلى مزيد إلقاء الضوء على الوظائف التي اضطلع بها الشيخ، مبرزين أهم الكرامات التي ميزته عن غيره من المتصوفة، واقفين في الآن ذاته على العلاقة التي ربطته بالمجتمع من جهة أولى التي قامت على التكامل والتعاون وبينه وبين السلطة من جهة ثانية التي قامت على التنافر والصدام. وانتهينا في آخر البحث إلى إبراز الطابع **"العجائبي المدهش"** الذي صبغ فكره الصوفي. ويمكن القول عموما وعلى ضوء ما تعرضنا له، إن قراءة النصوص المناقبية ومقاربتها وعرضها على مجهر البحث يكتسي أهمية متزايدة، خاصة وأن العزوف عن ذلك بدعوى عقم هذه المؤلفات وإقصائها عن دائرة البحث، لم يدعم سوى إخراجنا من استغلال هذا الركام المصدري المهم فيما يتعلق بالحياة الصوفية بإفريقية زمن الدولة الحفصية وما بعدها.

وعلى كل، فإن ما توصلت إليه هذه المقاربة على تواضعها ومحدودية النتائج التي وصلنا إليها والمتمثلة خاصة في هذا الرصد المعياري لخصوصيات تجربة أبي سعيد الباجي وفكره الصوفي في أفريقية من خلال نمط التصوف الذي اتّسم به، يسمح لنا بالوقوف عند مجموعة من الفرضيات التي توصلنا إليها، والتي يبقى التأكد من صدقها وصحتها مرتبطا بمدى نجاحنا في الإقناع بتمثيلية هذه النصوص بالذات بالقياس إلى غيرها من التصانيف المشابهة لها، والتي تتعرض إلى نفس الأفكار والطرائق، وهذا المبحث لا يمكن لنا ادعاء بلوغه ما دمنا لم نستوف بعد هذه الدراسة استيفاء مجملا و كاملا.

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

- ابن خلدون، **المقدمة**، ط الدار التونسية، بيروت، 1984
- الزركشي، تاريخ الدولتين، تحقيق الحسن اليعقوبي، ط 3، تونس، 1988
- القزويني، عجائب المخلوقات، ط، بيروت، 1973
- الهواري (علي)، مناقب أبي سعيد الباجي، تحقيق البخاري الشتوي، ط 1، تونس، 2004

2- المعاجم و الدوريات:

- ابن منظور، **لسان العرب**، ط جديدة محققة، تونس، 1997
- الحكيم (سعاد)، **المعجم الصوفي**، ط 1، لبنان، 1981
- عبد الباقي (محمد فؤاد)، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ط 1، بيروت، 1988
- دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للابداع، ط 1، 1998

3- المراجع:

الكتب:

- أبو حزام (أنور فؤاد)، **المصطلح الصوفي**، ط 1، لبنان، 1993
- الأخضر(لطيفة)، **الإسلام الطرقي**، ط 1، تونس، 1993
- أركون (محمد)، **الفكر الإسلامي قراءة علمية**، ط 1، بيروت، 1987
- ايكلمان (ديل)، **الإسلام في المغرب**، ترجمة محمد اعفيف، ط 1، المغرب، 1989
- برانشفيك (روبار)، **تاريخ أفريقية في العهد الحفصي**، ترجمة حمادي الساحلي، ط 1، تونس، 1988
- العامري- سلامة (نللي)، **الولاية والمجتمع**، ط 1، تونس، 2001
- عيسى (لطفي)، **أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ**، ط 1، تونس، 1993
- النيال (محمد البهلي)، **الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي**، ط 1 تونس، 1985

المقالات:

- مجلة الحياة الثقافية، ماي 1996
- مجلة الحياة الثقافية، فيفري 2000

4- المراجع الأجنبية:

- Amri-Slama (Nelly), « wali et awliya dans lifriqia « médévale », in studia islamica , 2000
- (J-y-)Lilliete, « introduction » , dans les fonctions des saints dans le monde ,Rome, 1991
- Laroousse, dictionnaire des noms communs, Paris, 1989

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com